المبحث الثاني

معاهدة ويستفاليا ١٦٤٨

ابتدأت محادثات الصلح في (ويستفاليا) سنة ١٦٤٨، في المدينتين (مونستر، وأوسنابروك)، وكانت الولايات الألمانية تسعى وتطالب بالصلح، وإيجاد تسوية دينية نهائية، وبإصلاح الإمبراطورية الرومانية المقدسة أصرت فرنسا، والسويد على أن تشترك الولايات الألمانية في المفاوضات على إنفراد لتفتيت القوى، وهو مبدأ رُحب به الأمراء الألمان بحماس، ولكن الإمبراطور قاومه من غير جدوى، وقد تدفق بسبب ذلك مئات الدبلوماسيين والمفاوضين على (ويستفاليا) ممثلين عن أنحاء الإمبراطورية، وقد حضره ممثلون عن أسبانيا، وفرنسا، والسويد، وهولندة، وسويسرا، والبرتغال، والبندقية، وحضره ممثلون عن إيطاليا، وحضره كذلك ممثل عن البابا، ولم يسبق أن أنعقد مؤتمر أوربي كهذا منذ مجلس (كونستانس) الاستشاري الذي كان في الحقيقة اجتماعا أوربيا أنعقد في العام ١٤١٥، لبحث شئون الكنيسة. وقد أصغى ممثل البابا إلى مقررات (ويستفاليا)، وأستمع لها بوضوح، ولكن البابا لم يوقع المعاهدات أبداً، وتعثرت المفاوضات، لأن الجيوش كانت ما تزال تحارب، وكان بعد كل معركة يعلن هذا الفريق أو ذاك شروطه، ورفضت فرنسا واسبانيا أن تتصالحا مع بعضهما وبقيتا في الحقيقة تتحاربان حتى سنة ١٦٥٩، ولكنهما اتفقتا على تسوية بالنسبة إلى مصلحة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وأدرجت معاني صلح (مونستر، واوسنابروك) التي عقدت في العام ١٦٤٨، وعُرفت بمعاهدة (ويستفاليا) [١].

وأهم ما جاء فيها :

أولاً: التسوية الدينية:

١. أعترف صلح (ويستفاليا) بما جاء من قبل في صلح بساو سنة ١٥٥٢، وصلح اوكسبرغ سنة ١٥٥٥، بشأن منح كل أمير الحق في اختيار المذهب الديني الذي يريد، أي أن حرية الاعتقاد قد منحت للأمير، وليس للأفراد.

٢. أعترف رسمياً بمذهب كالفن، وبذلك تمتع أنصار كالفن بالتسامح الديني الذي منح لأنصار مارتن لوثر من قبل، وبذلك تساوى البروتستانت مع اللوثريين الكالفانيين من التمتع بمبدأ(التسامح الديني).

٣. إنهاء النزاع بشأن استرجاع أملاك الكنيسة الكاثوليكية، فأتفق الطرفان الكاثوليكي والبروتستانتي على تحديد يوم أول كانون الثاني من العام ١٦٤٢،

كأساس للفصل في الأملاك التي تؤول إلى كل من البروتستانت والكاثوليك، والأملاك الموجودة بين يدي كل من الطرفين في صلح (براغ) في أيار من العام ١٦٣٥، وترتب على التسوية الجديدة أن تركزت الأملاك البروتستانتية في الشمال، والأملاك الكاثوليكية في الجنوب.

٤. صارت الولايات البروتستانتية على قدم المساواة مع الولايات الكاثوليكية في كل شئون الإمبراطورية، وأصبح المجلس الإمبراطوري الذي أستمر ليكون بمثابة مجلس لفض المنازعات، ويتكون من أعضاء من الكاثوليك، وآخرين مساوين لهم من البروتستانت[1].

ثانياً: التسوية السياسية :

تحكمت السويد في أجزاء واسعة من شمال ألمانيا، ولاسيما مصبات أنهار الأودر، والألب، والوزر، وحصلت على الأسقفيات البروتستانتية في (بريمن، وفردان) واحتفظت بالجزء الأكبر من (بوميرانيا) الغربية، وبذلك حققت السويد السيادة على (بحر البلطيق)، وهو الهدف الذي كان يسعى إليه الملك (غوستاف)، وفضلاً عن ذلك أصبحت السويد عضواً في (الدايت) الألماني، ولها ثلاثة أصوات، وبذلك أصبحت السويد من الدول الأوربية الكبرى، ولكن لفقر مواردها لم تتمكن من الاحتفاظ طويلاً بذلك المركز، أما عن فرنسا فقد استولت على (الألزاس) النمساوية ما عدا (ستراسبورغ) الحرة عاصمة (الألزاس)، كما ضمت بعض المناطق الألمانية، فامتلكت أسقفيات (متز) عاصمة (اللورين)، وتول، وفردان، وفي إيطاليا فقد استولت فرنسا على قلعة(بنيرلو) في مملكة (بيد مونت)[2].

ثالثاً: التعديلات السياسية في ألمانيا :

أضعف (صلح ويستفاليا) سلطة الإمبراطور نهائياً، وأصبح الأمراء الألمان على قدر كبير من القوة والاستقلال، واستقلت الإمارات البروتستانتية استقلالاً تاماً وأن ظلت هناك بعض الصلات الرسمية والشكلية بالإمبراطورية، وهكذا قضي على الإمبراطور في إيجاد إتحاد ألماني، وفي الوقت نفسه نرى أن التعويضات التي منحت لناخب(براندنبرج) قد جعلت منه أقوى الأمراء على الإطلاق في ألمانيا، فاستيلاؤه (مجدبرج) كتعويض عن (بوميرانيا) الغربية التي أخذتها السويد، وكذا (مندن، وهلبرشتات) فضلاً عن تمتعه بوراثة حكم (بوميرانيا) الشرقية جعله يسيطر على أجزاء واسعة من ألمانيا مما جعله دون شك الرجل الثاني في ألمانيا بعد الإمبراطور.

---

1 - المصدر نفسه
2 - روبرت بالمر
3 - د. عمر عبد

هذا لـ (براندبيرج) إلى أن تصبح أقوى الملكيات في ألمانيا تحت أسم(مملكة بروسيا) التي ستأخذ على عاتقها أيجاد الوحدة الألمانية التي عجز عن تحقيقها الإمبراطور، وكذلك أعترف هذا الصلح بانفصال سويسرا عن الإمبراطورية كما اعترفت اسبانيا باستقلال هولندا [1].

إن انحلال الإمبراطورية الرومانية المقدسة الذي أزداد برسم الحدود الدينية داخلها أيام(لوثر) أصبحت الآن ثابتة سياسياً، ومعترف بها من ناحية القانون الدولي، وانسلخت عنها الولايات التي تشكل حدودها، فلم تعدّ هولندا وسويسرا تابعتين لها، وأعترف بكل من المقاطعات المتحدة(الهولندية، والولايات السويسرية الكانتونات أو الكيان (الهيليفيني) حكومة ذات سيادة مستقلة ،فضلاً عن هذا الاعتراف للهولنديين باحتلالهم لضفتي (نهر شيلت الأسفل)، وبحقهم في غلقه بوجه السفن النازلة إلى المحيط [2].

وعلى هذا يمكن القول أن (صلح ويستفاليا) وضع حداً للآمال التي راودت (مكسيمليان الأول، وشارل الخامس، وفرديناند الثاني) بخصوص أصلاح وتوحيد الإمبراطورية اتحاداً مفككاً من ولايات كثيرة العدد، ولم تعدّ الإمبراطورية حتى أوائل القرن التاسع عشر زعيمة العالم المسيحي، ولو أسميا، وعلى العموم فقد أنهى (صلح ويستفاليا)، إحدى المراحل الحاسمة في التاريخ الأوربي الحديث، وهي مرحلة (الإصلاح الديني، والإصلاح المضاد)، ورغم أن الأحداث الدينية استمرت تؤدي دوراً مهماً في تاريخ أوربا كثيراً، مثل (فرنسا، وبريطانيا)، إذ الدول الأوربية والإمارات احتفظت بعقيدتها كما أصبحت عليه في العام ١٦٤٨ : وهكذا انتشرت فكرة التسامح الديني، وعمت أوربا، فبعد أن كان هذا المبدأ قاصراً على الأمراء، والطبقات العليا، بدأ يأخذ طريقه إلى الطبقة الوسطى، والطبقة الدنيا، وانقسمت أوربا أذاً إلى معسكرين رئيسين معسكر البروتستانتية، ومعسكر الكاثوليكية. وقد أثرت تعاليم المعسكرين في نظم الحكم لدول أوربا، فالكاثوليكية عملت على إقامة الملكية المطلقة، والكالفينية ساعدت على إقامة الدول الديمقراطية بحكم احترامها لحرية الفرد، واللوثرية وقفت من الجانبين موقف الوسط، وإن كانت أكثر ميلاً إلى معسكر الملكية المطلقة منها إلى معسكر الدول الديمقراطية، وبطبيعة الحال كانت فرنسا الكاثوليكية مثال الملكية الاستبدادية، وانكلترا وهولندا مثاليين للنظام الدستوري البرلماني [3].

---

1 - المصدر نفسه، ص ٢٥٤.
2 - روبرت بالمر، الجزء الأول، ص
3 - د.عمر عبد العزيز

وإذا كانت المسائل الدينية قد أدت إلى حرب عنيفة عمت أوربا، و
بخسائر فادحة، فإن التمسك بهذه المسائل لم يعد له ما يبرره بل أن المصالح التجارية
والقومية أصبح لها الأولوية على ما عداها من المسائل ومن ثم ضعفت سيطرة الكنيسة
على دول أوربا، وأصبحت سلطة الملكية تفوق ما عداها من سلطات، بما في ذلك سلطة
الكنيسة، وأدى هذا إلى نمو الدول في العصر الحديث [1].

نتائج معاهدة (ويستفاليا) في العلاقات الدولية:

١. ظهور مبدأ التمثيل الدبلوماسي:

فقد أصبح (التمثيل الدبلوماسي)، وتبادل السفراء عرفاً شائعاً بين الدول الأور
بعد حرب الثلاثين عاما، وقد ظهر العرف الدبلوماسي بين المدن الايطالية في القر
الخامس عشر، وأنتشر في القرن التالي بين أسبانيا، وفرنسا، وبريطانيا، ولك
الإمبراطورية الرومانية المقدسة لم تكن ضمن نطاق العرف الدبلوماسي، لأنها كان
أكثر سطوة، وأعظم نفوذاً من هذه الدول، وما حققته حرب الثلاثين عاماً، جع
الإمبراطورية الرومانية المقدسة في مستوى الدول الأوربية الأخرى. كما أصبح
الدول الأوربية تتعامل مع بعضها البعض على أساس المساواة بين الدول المست
ذات السيادة، وكان للتبادل الدبلوماسي تأثير كبير في توطيد العلاقات الدولي
وخاصة في وقت السلم، إذ أصبحت المعاهدات التجارية، والتحالفات الدفاعية أها
لهذا النوع من العلاقات بعد أن كانت (المعاهدات) أساس الروابط بين الدو
وكان مؤتمر (ويستفاليا) أول مؤتمر دولي بعثت إليه الدول ممثليها لإعادة السلم
أوربا.

٢. ظهور القانون الدولي:

نتيجة للحروب والخسائر البشرية رأت الدول ضرورة وضع بعض القوا
القانونية لحماية الدول المحايدة، ومعالجة المرضى والجرحى، ومنع إراقة الدماء، والتقا
وأشهر من كتب في هذا الموضوع هو (غروشيوس) الذي كتب كتابه الشهير "مقال
قانون الحرب والسلم"، ونشره في سنة ١٦٢٥، والذي دعا فيه إلى (التسامح الدي
وأكد(غروشيوس)، أن الحرب لا مفر منها بين الدول،لأنها تعتمد على العاطفة، وا
النفس،ولهذا من الصعب أن تتفق الدول على أسس المحافظة على السلام أو
الحروب، وعليه إذا كانت الحروب لابد منها، فيجب حصرها في نطاق ضيق لا
الدول التي تشترك فيها، ومحاولة تخ... أعمال ال... وإراقة دماء الأبر

1 - د.محمد
2 - روبرت

٣- ظهور مبدأ توازن القوى:

لقد أسهم مبدأ(توازن القوى) الذي ظهر أثر ظهور عدد كبير من الدول في أوربا في منع الحرب والتوسع، وكان يعني منع فسح المجال لدولة أو مجموعة من الدول المتحالفة بأن تطغى على غيرها، وتقوم بتهديدها، وذلك عن طريق تشكيل كتلة مضادة تستطيع إعادة التوازن بين الدول الأوربية، وكانت المدن الإيطالية تطبق هذا المبدأ على نطاق ضيق في القرن الخامس عشر، وكان(صلح ويستفاليا) عبارة عن محاولة لتقليل سيطرة(آل هابسبورغ) على أوربا بأخذ بعض أجزائها على حساب الدول الأخرى. لقد صار مبدأ (التوازن الدولي) أساساً تسير عليه الدول بعد حرب الثلاثين عاماً، وكان وسيلة للحفاظ على السلام، ومجابهة العدوان من قبل مجموعة من الدول، وفي كثير من الأحيان كانت الكتل المتنازعة على الغنائم تجبر بموجب هذا المبدأ أن تتنازل عن بعض مطامعها إلى أن يتعادل الميزان.

٤- تقلص الإمبراطورية الرومانية المقدسة:

وتدهورها، وتأجيل الوحدة الألمانية بسبب أنانية أمراء الولايات، وتدخل الأجانب في شئون ألمانيا الداخلية كفرنسا، والسويد، والدانمارك [1].

إن أعظم انتصار حققته فرنسا، وحليفاتها السويد، وهولندا، كان في الدستور الجديد للإمبراطورية ذاتها، وليس في التغييرات الإقليمية. لقد أصبحت الولايات الجديدة التي يربو عددها على ثلاثمائة ولاية، حكومات ذات سيادة، ومنحت كل واحدة منها الحق في أقامة العلاقات السياسية مع الحكومات الأجنبية، وعقد المعاهدات معها، وذهب (صلح ويستفاليا) إلى أبعد من ذلك كثيراً، فأشترط الإمبراطور بأن لا يحق له سن القوانين، وجباية الضرائب، ودعوة الجنود لحمل السلاح، وإعلان الحرب، وتعديل بنود معاهدة صلح ما، إلاّ بموافقة مجلس الإمبراطورية المؤلف من ثلاثمائة أمير، وذلك في اجتماع يعقدونه في (الرايخشتاغ)، واختيرت كل من (فرنسا، والسويد) لتكونا ضامنتين لـ (صلح ويستفاليا). على أن السويد، وأن كانت قد بلغت من الضعف درجة لا تستطيع معها تنفيذ تعهدها تنفيذاً فعالاً، فإنّ فرنسا بقيت تستفيد من هذه القاعدة القانونية للتدخل في شئون أوربا الوسطى قرن ونصف من الزمن [2]. إن معاهدة ويستفاليا تُعدّ بحق ميلاد الدولة القومية في العلاقات الدولية، فأصبح للدولة حدود قومية، وجيش قومي، واقتصاد قومي، وملك لا يخضع لا لسلطة الكنيسة، ولا لسلطة الإمبراطور.

1- د.محمد محمد صالح، مصدر سبق ذكره، ص٣٠١-٣٠٥.

2- روبرت بالمر، الجزء الأول، مصدر سبق ذكره،